دراسات الصورة

بين الدرس المقارن للأدب والعلوم الإنسانية

● د. عبد النبي اصطيف

ارتبطت دراسات الصورة Image Studies، أو "علم الصور" "Imagologie"، أو الصورولوجيا كما يحلو المصطلح لبعض العرب، أو الصوراتية كما يروق للبعض الآخر، ومنذ نشأتها بالرغبة في تطوير الدرس المقارن للأدب في المدرسة الفرنسية التقليدية ولا سيما لدى جان ماري كاريه وتلميذه فرانسوا غويار، وتوظيف هذا التطوير بغرض تبديد المترددات السلبية التي تحتفظ بها الشعوب الأوربية كل منها عن الآخر، والتي تفاقم تأثيرها بحربين عالميتين أنهكتا القارة وجيرانها الأقارب والأباعد، وخلفتا إرثاً أو تركة كانت وبالاً على العالم كله. ولذا فقد كان من الطبيعي أن تكون هذه الدراسات خلافية من جهة، وموضع نقد شديد بالتالي من جهة أخرى، يأتيها من الداخليين (رينيه إيتيامبل) ومن الخارجيين (رينيه ويليك) في آن معاً. وبعبارة أخرى لقد كانت دراسات الصورة ومنذ بداياتها موضع مساءلة على طرفي المحيط الأطلسي، وعانت بوصفها نوعاً من الدرس المقارن التطبيقي للأدب، من أزمة هوية وتبعية، إذ تنازعها كل من الأدب المقارن من جانب، وعدد من العلوم الإنسانية من جانب آخر، فكانت باستمرار الوليد الذي يخضع نسبه، وبالتالي هويته، للتشكيك والمراجعة والتدقيق، وكان عليها أن تثبت جدارتها بهذا النسب، سواء أكان الأدب المقارن أو واحداً من العلوم الإنسانية Humanities (علم النفس، أو علم الاجتماع، أو الإعلام، أو العلاقات الدولية).

وربما كان من المفارقة حقاً أن تحظى دراسات الصورة بقبول متنام في العالم الغربي بشكل خاص مع تنامي الاهتمام بدراسات الهوية وبخاصة في التجمعات الدولية أو الإقليمية القائمة على التعددية في النصف الثاني من القرن العشرين (ولا سيما في مجتمعات المهاجرة: الولايات المتحدة الأمريكية، أمريكا الجنوبية، كندا، أستراليا، الاتحاد السوفيتي، وأخيراً الاتحاد الأوربي). لقد أدى التقارب بين الأمم والشعوب الذي يسّرته ثورة الاتصالات والنقل إلى حفز التفكير في الخصائص المميزة لكل أمة أو شعب بات يشعر بخطر الذوبان في محيط الآخر الذي تتسرب مياهه في كل جانب من جوانب حياته. وجاءت العولمة Globalization مؤخراً لتعزز هذا الحافز وتعمق الاهتمام بدراسة مسألة الهوية Identity على نحو لافت للنظر ولا سيما في ربع القرن الأخير. ولكن هذا القبول المتنامي الذي ظفرت به دراسات الصورة من قبل المجتمعات الأكاديمية لم يخفف من أزمة هويتها التي ظلت موضع مساءلة شديدة، وكأن قدرها أن تبقى أبداً في منطقة البين - البين أو الأعراف بين الأدب المقارن والعلوم الإنسانية.

ولا ريب أن طرح مسألة هوية دراسات الصورة وإشكالاتها مهم حقاً ولا سيما في هذه المرحلة الخطيرة من حياة الأمة العربية التي تتكالب عليها مختلف القوى الإقليمية والدولية مستهدفة وجودها بوصفها أمة عريقة تسعى إلى استعادة وحدتها ودورها الحضاري، ولكن يبدو للمرء أن علينا ألا نكتفي بذلك، بل أن نشفعه بالدعوة إلى الاهتمام بفهم الظاهرة الإنسانية ذاتها، وتعميق هذا الفهم والإلحاح على تحقيق تقدم حقيقي ملموس في البحث العلمي المتصل بعلاقة "الأنا" بـ"الآخر"، بدل الانشغال بمسألة تبعية دراسات الصورة واستقلالها، ولاسيما أن الهدف الأسمى لهذا البحث، كما يقرّ بذلك معظم العلماء في هذا الميدان الشائك الشائك معاً، هو فهم الإنسان، أو استيعاب "سر الأسرار" في هذا العالم، الذي هو خليفة الخالق على هذا الكوكب.■